مرافئ الخيبة

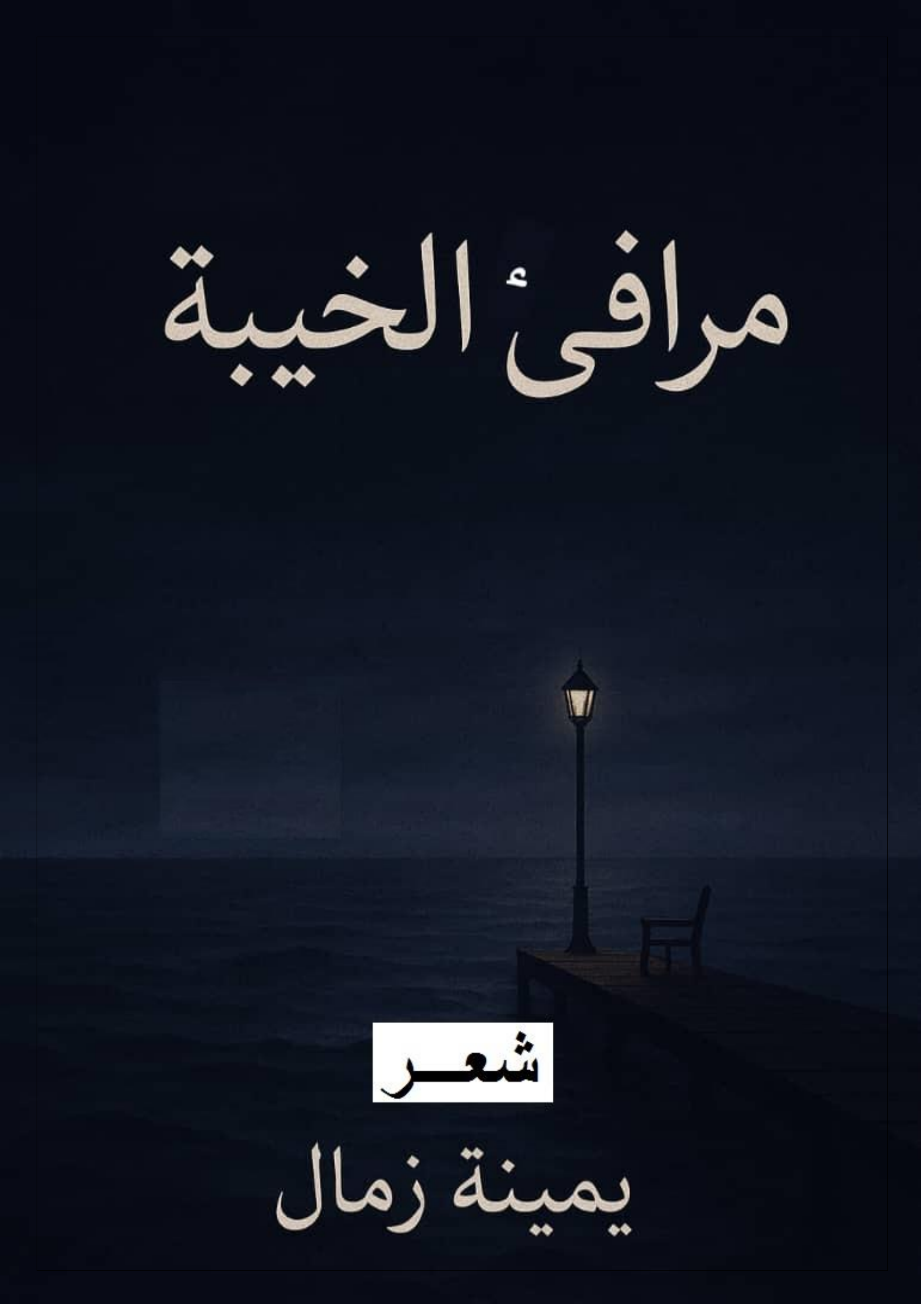

شعر

يمينة زمال

الديـــــــــــــوان :

مرافئ الخيبة

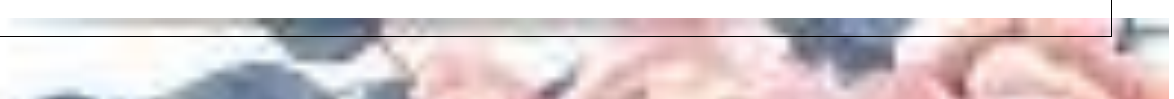

الإهـــــــــداء:

إلى كلِّ قلبٍ انتظر طويلًا...

إلى كلِّ روحٍ انكسرت ثم نهضت...

إلى كلِّ عينٍ خذلها الدمع ولم يخذلها الأمل...

إليكم أهدي هذه المرافئ،

علَّها تكون مرآةً لوجعكم،

وجسرًا لعبوركم،

وسفرًا يُذكِّركم أن الخيبة ليست سوى

وجهًا آخر للحياة.

على أرصفة العمر، حيث يرسو الانتظار بلا موعد، وحيث تتكسّر المراكب قبل أن تبلغ شواطئها، هناك وُلد هذا الديوان...

إنه ليس اعترافًا بضعف، بل اعتراف بأنّ الخيبة وجهٌ آخر من وجوه الحقيقة.

كل خيبةٍ تحمل في صمتها جرحًا أعمق من الكلمات، لكنها - paradoxically - تمنحنا القدرة على أن نكتب، فالكتابة وحدها تستطيع أن تحوّل الرماد إلى حروف، والخذلان إلى نصوص، والانكسار إلى ذاكرة متماسكة.

"مرافئ الخيبة" ليست مجرّد نصوص عابرة، بل مرافئ يتوقف عندها القلب حين يرهقه التيه، مرافئ للانتظار الطويل، للانكسارات المتتالية، للخذلان المرير، وللتكيّف القاسي مع واقعٍ لا يشبه أحلامنا.

قد يجد القارئ هنا مرآةً تعكس صوته الداخلي، أو صدىً لخيباته المخبّأة، وقد يجد عزاءً خفيًا بأنّ الخيبة قدرٌ إنساني مشترك، وأنّ المرافئ، مهما طال سكونها، تظلّ وعدًا بالرحيل نحو أفقٍ جديد.

قصيدة : ساعة الرمل الممدودة (توسيع موسّع)

أقلب ساعة الرمل بين يديّ،
وأراقب الحبات وهي تتساقط واحدة واحدة،
كأنها تحمل أسرار الكون في صمتها الصغير.
كل حبةٍ تتفكك في القاع، وكل سقوطٍ منها
يذكّرني بأن الوقت لا ينتظر أحدًا.

أجلس على رصيف الانتظار،
أحسب نبضات قلبي مع سقوط كل حبة،
أستمع إلى صدى صمتها في غرفتي المهجورة،
وكأن العالم كله توقف لحظة واحدة،
وأنا وحدي أتحرك بين لحظاته المتلاشية.

الانتظار هنا ليس مجرد مرور الزمن،
بل هو تجربة جسدية،
يمتص كل جزء مني،
يجعل يدي ثقيلة، ورقبتي مشدودة،
ويتركني أرتجف أمام لحظةٍ قد تأتي أو لا تأتي أبدًا.

أغلق عيني، وأحاول تذكر أصوات الماضي،
الضحكات التي فقدت طريقها إليّ،
الرسائل التي بقيت حبيسة صندوق البريد،
الأشخاص الذين وعدوني ولم يأتوا.

كل شيء يبدو وكأنه يتجمع هنا، في هذه الحبات الصغيرة،
ليعلّمني درسًا صارمًا:
أن الانتظار الحقيقي هو مواجهة الفراغ،
والصبر على الغياب،
والقدرة على الاستمرار رغم شعور القلب بأنه عالق في منتصف الطريق.

ثم أفتح يدي لأجد بعض الحبات قد تسللت بين أصابعي،
أمسك بها متسائلًا: هل هي وعدٌ أم تحذير؟
أضعها على الطاولة، وأراقبها وهي تتفتت ببطء،
وأدرك أن الانتظار يعلمنا شيئًا لم نتعلمه في أي لحظة فرح:
أنه ليس عن من ننتظرهم، بل عن ما نصبح عليه ونحن ننتظر.

قصيدة : مرافئ مؤجَّلة

على ضفافِ الغيابِ
تُرسو مراكبُ قلبي،
تُلوّحُ بأشرعةٍ مثقوبة،
وتحلمُ أن تبلُغَ الضفّةَ الأخرى.

لكنّ الرياحَ تُديرُ وجهَها،
كأنها تتآمرُ مع البحر
ليظلّ السفرُ مؤجّلًا إلى أجلٍ غير معلوم.

كلُّ مرفأٍ وعدني باللقاء،

ثم أغلقَ أبوابَهُ،
كأنّي دخيلٌ على الحلم،
أو غريبٌ على الذاكرة.

أمددتُ يدي نحو الغد،
فلم أقبضْ إلّا على هواءٍ باردٍ،
يُعيد لي صدى الخيبة،
ويرسم على راحتي خطوطَ الانتظار.

يا لثقلِ الساعاتِ حين تَتعطّل عقاربها،
فتصيرُ الأيّامُ دوائرَ مغلقة،
تُعيدني دائمًا
إلى النقطة ذاتها،
حيث لا وصولَ،
ولا عودة.

كم يشبه الانتظارُ موتًا بطيئًا،
تدفن فيه الحياةُ رأسَها في رمالٍ مُتحرّكة،
لا قبرَ له،
ولا شاهدةَ تُنبّه العابرين!

أنا المعلّقُ على صليب اللحظة،
أتأرجح بين أملٍ يُزهرُ ساعة،
ويذبلُ دهراً،

وبين صبرٍ يتصدّعُ تحت مطرِ الغياب.

وحده البحرُ يعرفُ حكايتي،
فقد علّمتُه لغةَ العيونِ المبللة،
وسلّمتُه أسراري،
علّه يومًا يُعيدني إلى شاطئٍ لم أبلغه قط.

قصيدة : ساعة الرمل

تسقطُ الحباتُ في صمتٍ ثقيل،
كأنها تَعُدُّ أنفاسي،
أو تتهكّم على صبري المعلّق.

كلُّ حبّةٍ رملٍ،
جرحٌ صغيرٌ في خاصرة الوقت،
كلُّ ثانيةٍ،
مسمارٌ آخر في نعش الأمل.

أُحدّق في الزجاجة المقلوبة،
أرى العمرَ ينحدرُ بلا هوادة،
وأنا أسيرُ في نفقٍ لا آخر له،
أصغي إلى وقعِ الغياب
كأنه طبولٌ خفيّة
تُعلن هزيمة القلب.

يا لَطولِ الطريقِ حين تُطفئه العتمة!
ويالَقسوةِ المسافةِ حين تتآكل الأقدام
قبل أن تبلغَ الدربَ المنتظر.

كم مرةً قلَبتُ ساعة الرمل،
ظننتُ أنني أخدعُ الوقت،
فإذا بالانتظار يخدعني،
ويمتدُّ كبحرٍ بلا ضفاف.

كلُّ الحباتِ تجتمعُ في قاعها،
كما اجتمعت الخيباتُ في قلبي.
كلُّ دقيقةٍ تتساقط،

كذكرى لم تُكتمل.

أصرخُ في وجه الصمت:
"ألا ينتهي هذا الزمن المعلّق؟!"
لكنّ الزجاج لا يجيب،
والرمل لا يسمع،
والانتظار يضحكُ ملءَ فراغه.

وأظلّ أُقلّب الساعة،
كمن يحرّكُ جثمانًا،
وهو يعلمُ أنّ الروحَ لن تعود.

قصيدة : رسائل لم تصل

كتبتُ إليكَ على ورقٍ هشّ،
كأنّه قلبٌ يتصدّعُ عند أوّل لمسة،
سطّرتُ بالحبر أنفاسي،
وبالأمل وضعتُ العنوان:
"إلى الذي تأخّر كثيرًا... وما زلتُ أنتظره."

أرسلتُها مع الريح،
مع سرب حمامٍ لا يعرفُ طريق العودة،
أرسلتها مع الموج،
مع الغيم،
مع ظلّي وأنا أعبرُ طرقاتٍ بلا خرائط.

لكنّها جميعًا تاهت،
لم تصلْ،
ولم تعُدْ.

كتبتُ في إحداها:
"إنني أتعلم الصبرَ من صمتك،
وأتعلم الغيابَ من حضورك الناقص،
وأتعلمُ الموتَ البطيءَ من كلِّ يومٍ لا تأتي فيه."

وكتبتُ في أخرى:

"إن المرافئ التي تغلقُ أبوابَها في وجهي،
تُشبه ابتسامتك التي لم تُزهر إلا في خيالي."

لكنّ الرسائل ضاعت،
كأن البريدَ تواطأ مع القدر،
وكأن العالمَ اتفق على إخفاء صوتي.

كم من رسالةٍ كتبتُها بدمعٍ حارق،
فمحَتها السماءُ قبل أن يقرؤها أحد!
وكم من كلمةٍ خبّأتُها في صدري،
فانطفأت مثل جمرٍ في عاصفة!

رسائلي لم تصلْ،
لكنها ظلّتْ تتكاثرُ في داخلي،
كأجنّةٍ لم تُولد،
كأغانٍ لم تُغنَّ،
كأبوابٍ لم تُفتح.

صرتُ أعلّق الرسائلَ على جدران الليل،
أخاطبُها كما لو كنتُ أخاطبُك:
"إن عدتَ يومًا، ستجدني هنا...
في الهامش، على حافة الكلام،
أكتبُك مرّةً أخرى."

غير أنّك لم تعدْ،
ولم يطرق بابي أحد.

كل رسالةٍ لم تصل،
حجرٌ في قلبي،
كلّ حرفٍ ضائعٍ شاهدُ قبرٍ
على حبٍّ مات قبل أن يولد.

أُعيدُ كتابتها مرارًا،
أغيّر التاريخ،
أضيفُ عبارةً جديدة،
لكنّ المصير واحد:
ضياعٌ آخر،
انتظارٌ آخر.

يا أنت،
إن كنتَ قد التقطتَ رسالةً منّي في حلم،
فاعلم أنّ وراءها غابةَ وجعٍ،
وأنّ ما لم يُكتب كان أثقلَ من الكلام،
وأشدَّ مرارةً من كلِّ الرسائل الضائعة.

إنها رسائل لم تصل...
وما زلتُ أكتبها،

كمن يحفرُ في البحر،
كمن يزرعُ في الريح،
كمن يُغنّي للحجارة.

أكتبها،
وأعرفُ أنها لن تصل،
لكنها ـ على الأقل ـ
تُبقي قلبي حيًّا في مقبرة الانتظار.

قصيدة : ظلّ على الرصيف

جلستُ على رصيفِ الوقت،
أُحصي خطى المارة،
وأنا الغريبُ الوحيدُ الذي لا وجهَ له،
لا يدٌ تُلوّح،

ولا عينٌ تبحث عنه.

يمرُّ الجميعُ مُستعجلين،
كأنّ لهم مواعيدَ مع الفرح،
وأنا وحدي أمتلكُ موعدًا أبديًّا
مع الانتظار.

ظلّي الممدودُ بجانبي
صار رفيقًا أثقل من الوحدة،
يسألني كلَّ مساء:
"إلى متى ستظلّ هنا؟
إلى متى ستعطي لعينيك تذكرةً لا تُستعمل؟"
أصمتُ...
فالصمتُ هو اللغةُ الوحيدة التي يفهمها الرصيف،
وهو الجدارُ الأخير الذي لا يخون.

كم من قطارٍ مرَّ أمامي،
حملتْ صفيرَه الريحُ،
ولم يحملني.
كم من عربةٍ توقّفتْ لحظة،
ثم مضتْ كأنها تتعمّدُ أن تتركَني وراءها،
يتآكلني الغبار.

في ليالي الشتاء،
كان الرصيفُ بطّانيةً باردةً،
وكان المطرُ موسيقى منفى،
وكنتُ أنا الحرفَ الساقطَ من رسالة،
لم يقرأه أحد،
ولم يُكمل به أحدٌ سطرًا ناقصًا.

أيها الرصيفُ،
يا صديقي العابر الذي لا يسأل،
لقد صرتَ مرآتي:
كلّما طالت قامتي من شوق،
مددتَ لي ظلًّا أطول من حزني،
وكلّما انكمشتُ من الخيبة،
طويتَني في زواياك كأوراقٍ مهملة.

أنا لستُ أكثر من ظلّ،
ظلٍّ مهزومٍ على الرصيف،

ينتظرُ شيئًا لا يعرفه،
وينادي أحدًا لا يسمعه،
ويكتبُ في الهواء أسماءً تُمحى قبل أن تكتمل.

هكذا ينتهي اليوم،
هكذا تبدأ غدًا آخر،
وأنا والظلُّ نتقاسَمُ اليُتم،
في رصيفٍ لا يحفظُ غير خطوات الراحلين.

قصيدة: مرايا مكسورة

أدخلُ على المرايا كمن يدخل محرابًا،
أبحث عن وجهي فلا أجد غيري مبعثرًا،
كأنّ الآية القديمة قد نزلت من جديد:
﴿فَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

كلُّ صدعٍ فيها يشبه فجوة في قلبي،
كلُّ شظيةٍ تعكسني في صورةٍ أخرى:
امرأة تنهضُ لتسقط،
تضحك لتبكي،
تتكلّم لتزيد الصمتَ صخبًا.

أمدُّ يدي إلى الزجاج المكسور،
فتنزف أصابعي كما نزفت أيامي،
لكنّ الدم هذه المرّة
يشهد أنني كنتُ هنا،
أنني لم أُمحَ تمامًا.
يقولون:
المرآةُ صادقة،
لكنّ صدقها أقسى من الكذب،
أكثر فتكًا من الخيانة.

كم من وجوهٍ مرّت على المرايا
فأخفت ما فيها من شروخ؟
أما أنا فلا مرآة تحتملني،
كلّها تتهشّم حين أطلّ عليها،
كأنّني لعنةٌ تمشي،
كأنّ وجهي سطرٌ من قصيدة ملعونة
لم يجد لها شاعرٌ بيتًا يتمّها.

يا مراياي،
علّمتني أن أكون امرأةً بلا ملامح،
امرأةً تعيش في الظلّ،
وتشربُ صدى صورتها
كما تشرب الأرضُ ماءً لا يكفيها.

قصيدة: انهيار الحلم

كان لي حلمٌ صغير،
أربّيه في قلبي كما يُربّى غرسٌ في حديقة،
أرشّه باليقين،
أغنّيه بآيات الأمل،
وأقول له كلّ صباح:
﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

لكنّ الريح جاءت من حيث لا أدري،
فاهتزّ الغرس،
وانكسرت أغصانه قبل أن تثمر.

الحلم الذي كان لي،
لم يكن خيالًا عابرًا،
كان أرضًا أسير عليها،
سماءً أرفع عيني إليها،
وكان، يا ويلي،

أنتَ الماء الذي يسقيه.

وحين انقطعت،
يبسَت الأرض،
وانطفأت السماء،
وصار الحلم جثةً لا مكان لدفنها.

حاولتُ أن أبني له قبرًا في داخلي،
لكنّ القبور تضيق بالأحلام،
والأحلام إذا ماتت
لا تُدفن،
إنها تبقى معلّقة بين السماء والأرض،
تصير كالعهن المنفوش
يُذرَّى مع كلّ ريح،
يعود ليلتصق بالذاكرة.

انهيارُ حلمٍ ليس سقوطًا فحسب،
إنه زلزال صامت،
لا يسمعه أحد،
لكنّه يترك المدينة كلها أنقاضًا.

وها أنا بين الركام،
أجمع بقايا الجدران،
أفتّش في الغبار عن وجهٍ أعرفه،

عن يدٍ ترفعني،
لكنّي لا أجد غير صدى صمتي،
ولا أسمع غير سؤالٍ يتردّد بلا جواب:
كيف ندفن ما كان حياتنا؟

قصيدة: طعنة الظلّ

كنتَ ظِلّي،
أمشي مطمئنّةً لأنّك تسير خلفي،
أثق أنّ الخطوات لا تضيع
ما دام لك وجودٌ يرافقني.

لكنّك انسحبتَ في لحظةٍ غامضة،
كما ينسحب النهار حين يُؤذن للمساء،
وتركتني في عتمةٍ لا قرار لها.

أدركتُ يومها أنّ الخذلان

أشدُّ من الغياب،
وأقسى من الانكسار؛
فالغائب قد يعود،
والمكسور قد يُجبر،
أمّا الخذلان فهو موتُ الثقة،
والموتُ لا يُستعاد.
كنتَ اليدَ التي أمسكتُ بها لأعبر،
فدفعتني إلى الهاوية،
كنتَ الجدار الذي احتميتُ به،
فانهار عليّ بأكمله.

كم يشبه الخذلان خيانة يوسف من إخوته،
وكم يشبه دموع يعقوب حين قيل له:
﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾.

أنا أيضًا أشكو بثّي،
لكن ليس إلى بشرٍ،
فالبشر كانوا الخنجر،
أنا أشكو إلى الله
كيف جعلتُ من إنسانٍ سمائي،
ثم أسقطني إلى قاع الأرض.

خذلانك لم يكن حدثًا عابرًا،
كان زلزالًا يمشي على قدمين،

اقتلع جذوري،
تركَني شجرةً مقلوبة،
أوراقها في التراب،
وجذورها في الهواء.

قصيدة: خيانة الوعد

كان وعدُك قمري،
أعلّقه على نافذتي
لينير ليالٍ مثقلة بالوحدة.
كنتَ تقسم أنّك ستجيء،

أنّ الغياب ليس قدرًا،
أنّ الغدَ صفحة بيضاء سنكتبها معًا.

لكن الوعد انطفأ،
كقنديلٍ تُرك في مهبّ ريح،
ولم يبقَ منه غير دخانٍ
يعلو ثم يتلاشى في الهواء.

الوعد حين يُخون،
لا يترك جرحًا صغيرًا،
إنه يمحو التاريخ كله.
كنتُ أستند إلى كلماتك
كما يستند الأعمى إلى عصاه،
فأوقعتني حيث لا أرض ولا سماء.

كم يشبه وعدك الناقض
قَصَصَ الذين عاهدوا ثم نكصوا،
﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾.
وأنا التي كنت أظنّك استثناءً،
صرتَ المثال الأكثر وضوحًا.

لقد تعلّمتُ أن الكلمات
قد تكون أجمل خيانة،
أنّ الحروف حين تُقال بصدقٍ زائف

تغدو أشدَّ وقعًا من السيوف.

قصيدة: مائدة فارغة

أعددتُ مائدة الانتظار،
فرشتُها بالحنين،
وزيّنتُها بأحلامٍ صغيرة،
وضعتُ في وسطها قلبًا نابضًا
كزهرةٍ حمراء لا تذبل.

كنتُ أظنّك ستجلس قبالتي،
تملأ الكرسيَّ بصوتك،
وتجعل للصمت لحنًا جديدًا.

لكنّك لم تجيء.
وظلّ الكرسيّ فارغًا،
والمائدة تتحوّل شيئًا فشيئًا
إلى مقبرةٍ صغيرة
لأحلامٍ أُعدّت ولم تُؤكل.

الخذلان ليس غيابًا فحسب،
إنه أن تُهيّئ مكانًا للحضور
ثم لا يأتي أحد.

إنه أن تُنصت لخطواتٍ واهمة
عند الباب،
فتفتح فلا تجد غير الهواء.

المائدة اليوم شاهدة،
الكرسيّ شاهد،
الأكواب الفارغة شهود،
وأنا الشاهدة والشهيدة معًا.

قصيدة: مرايا مكسورة

في المرايا الموزّعة على جدران الروح
أرى وجهي يتفتّت كزجاجٍ أصابه الحجر.
ليس وجها واحدًا...
بل آلاف الشظايا،

كل شظية تحمل حكايةً لم تكتمل،
وصرخةً لم تجد صدى.

كنتُ أظنّ أن الزجاج يحفظ الوجوه،
فإذا به يحفظ الخيبات.
كنتُ أظنّ أن المرايا لا تكذب،
فإذا بها أكثر خداعًا من الكلمات.

يا مرآةَ القلب،
أيّ آيةٍ من سورة يوسف تخبّئين؟
أأنتِ بئرُ الغياب؟
أم قميصُ الحزن الملطّخ بالكذب؟
أم دموعُ يعقوب حين لم يعد له سوى البكاء؟

أتذكّر أنني كنتُ طفلةً
أحلم أن أكون ملاكًا يطير،
لكن جناحيّ كانا من ورق،
والمطر محا الحبر،
فانطفأ الطيران قبل أن يولد.

كلما اقتربتُ من النور،
احترقت أصابعي مثل إيكاروس،
وعدتُ أكثر سقوطًا،
أكثر هشاشةً،

أكثر حاجةً إلى جدارٍ يستر انكساري.

لكن...
حتى الجدران لها آذانٌ من حجر،
تسمع الانهيار ولا تجيب.
حتى الليل،
الذي وعدني بالستر،
صار يفضحني بظلاله السوداء.

فيا مراياي المكسورة،
علّمني كيف أرتّق نفسي بخيط الصمت،
كيف أجمع شظاياي في إناءٍ من طين،
علّها تصبح جرّةً تحفظ الماء،
بدل أن تكون سكينًا تجرح كل من يلمسها.

قصيدة: خذلان الذات

أنا التي خذلتني نفسي،
حين صدّقت أني قادرةٌ على كسر جدار الحديد،
فارتدّ الصوت عليّ
كصرخةٍ في بئر.

كنتُ أظنّني جبالًا،
فانكشفت أنّي هشيمٌ تذروه الرياح.
كنتُ أظنّني نهرًا،
فانكشفت أنّي جدولٌ يتيه في الرمل.

قالت لي نفسي:
"انهضي، فأنتِ ابنة الحلم"،
لكنها تركتني عند منتصف الطريق،
وغادرت كخائنٍ يعرف الوجهات كلها،
إلا وجهة القلب.

أيها الغريب الذي يسكنني،
أيّ اسم لك؟
أأنت إبليس الذي أقسم أن يغويني؟
أم أنت آدم الذي أكل التفاحة وورّطني؟
أم أنت موسى الذي كسر الألواح؟
أم عيسى الذي لم يجد مأوى يولد فيه؟

خذلتني نفسي،
فصرتُ بلا مأوى في جسدي،
أطرق أبواب الروح
فلا يفتح أحد.

قصيدة: خذلان الأمل
كنتُ أحمل أملي كشمعة،
أحتمي بضوئها من الليل،
لكن الريح خانتني،
وأطفأت اللهب.

قالوا: الأمل آخر ما يموت،
لكنني رأيته يموت أمامي
كطفلٍ يتيم في حربٍ بلا اسم.

يا أملًا ضاع،
أأنتَ عُزيرٌ الذي أماته الله مائة عام؟
أم أنتَ يوسف
الذي أكلته قافلة الذئاب قبل أن ينجو من البئر؟
كنتَ قلبي،
فصرتَ قبري.
كنتَ موعدي،
فصرتَ غيابي.

كنتَ جناحي،
فصرتَ حجري.
لكنني، رغم خذلانك،
سأوقد من رمادك شعلةً أخرى،
فلعلّ الرماد
أصدق من اللهب.

خاتمة الديوان

عند ضفاف الخيبة، حيث ترسو سفن العمر مثقلةً بما لم تبلغه من مرافئ،
لا يبقى من الرحلة سوى أثر الأقدام على رمال الوقت،
وبعض الشظايا التي تحوّلت، مع الصبر، إلى لآلئ مخبوءة في الصدور.

الانتظار علّمني أنّ الزمن مرآة القلب،
والانكسار كشف لي أنّ الهشاشة وجه آخر للقوة،
أما الخذلان فقد أهداني يقينًا بأن لا سند يدوم إلا وجه الله.

هذا الديوان ليس مرثيةً للحلم،
ولا نشيدًا للحزن،
إنما هو خريطة للروح وهي تتعلّم السير بين الفقدان والرجاء.
إنه اعتراف بأن الخيبة ليست نهاية،
بل بداية طريقٍ جديد،
حيث الرماد يتحوّل وقودًا،
والظلمة تُنجب نجمةً لا تخون.

فليكن هذا النصّ آخر المرافئ،
وأوّل الإبحارات.